طريقة ابن حيان في الكتابة التاريخية

د. إحسان عبّاس

لعلَّ أبرز ما يواجه قارىء ابن حيان ـ قبل أن يتوغل في استقصاء سائر مميزات المؤرخ لديه ـ طبيعة أسلوبه؛ وهو أسلوب يمكن أن يوصف أنه « متميز » على نحو ما. وقبل الحديث عن العناصر التي تفرده بخصائص فارقة في موسيقى النظم وفي معالم ساطعة في المضمون ـ على حدّ سواء ـ لا بدّ من تذكر ثلاث حقائق أولية:

(١) ان ابن حيان كان كاتباً مترسلاً، وقد أورد له ابن بسام[١] مقتطفات من رسائله خاطب بها بعض رجالات عصره مثل ابن عباد وابن زياد صاحب الصلاة وأبي القاسم ابن عبدالغفور والوزير أبي بكر ابن زيدون؛ فهو قد شقَّ لنفسه طريقة في الكتابة قبل أن يستبد به الميل الى التاريخ، حتى أصبح عدوله عن طريقته الكتابية إذا هو « أنشأ » تاريخاً أمراً عسيراً أو غير ضروري أو غير مستساغ في نظره.

(٢) أنه « أنشأ » كتاب « المتين » في تأريخه للفتنة ولدول ملوك الطوائف، كما « أنشأ » البطشة الكبرى، وهو كتابه الذي خصصه لتصوير نهاية الدولة الجمهورية بقرطبة[٢] (ولعله جزء من المتين أو التاريخ الكبير)، وهذا يعنى ببساطة أنه لم يجد عند القيام بذلك ما يضطره الى التخلّي عن الطريقة التي وسمت كتابته؛ اذ كان يكتب مستعيناً بتذكرة قيدها، أو عن مشاهدة أو عن استئناس بمحدث ثقة، أو عن مذاكرة في مجلس (ولم يذكر أنه استعمل وثائق ديوانية).

(٣) أنه « لم ينشىء » كتاب المقتبس، لأنه كان يؤرخ فيه لفترة لم يشهدها ولا عايش من شهدها، فترة تمتد من فتح الاندلس حتى قبيل منبعث الفتنة، فهو يتكىء فيها ـ في الاغلب ـ على مؤرخين سبقوه، وعلى وثائق محفوظة في خزائن الدولة، وعلى بعض شهود السماع؛ فهو في الجملة يتكىء على أساليب مختلفة حين ينقل عن الرازيّيْن وابن القوطية وابن الفرضي وابن عبد ربه وابن مفرج وابن عبدالله ومعاوية الشبانسي ومحمد بن حارث

الخشني وغيرهم. ومن المفروض أن لا يسلم له أسلوبه الخاص به الا حين يستقل عن مصادره ويبعد عن تأثيرها. ولهذا فليس من الطبيعي أن يبحث الدارس عن خصائص ذلك الاسلوب في ما وصلنا من المقتبس وانما عليه أن يعمد إلى رسائله الخاصة أو ما نقله ابن بسام من تاريخه الكبير، فانه واجد فيها ما يحقق غايته على نحو مقارب، وإنما أقول « على نحو مقارب » لأن رسائله التي وصلتنا قليلة العدد، ولأن ابن بسام يصرِّح كثيراً وهو ينقل عنه بأنه يتعمد الاختصار[٣]، ولدى المقارنة بين نسخ الذخيرة المختلفة يجد المرء منها فئتين متفاوتتين: إحداهما شديدة الإيجاز حتى لتضيع فيها المعالم المميزة لأسلوب ابن حيان، والثانية معتدلة في إيجازها، فهي لذلك أقرب إلى طبيعة الأصل (المقدَّر) من أختها.

ومن استقرأ ما تبقى من رسائل ابن حيان وتاريخه الكبير وجد أسلوبه ينبع من موقفه وهو يمسك بقلم المؤرخ؛ ولهذا الموقف عدة جوانب من أهمها الوقوف مع الجماعة والدفاع عنها بقوة، وهذا يجعل أسلوبه يرتفع في الدرجة حين يتحدث عمن ينصر الجماعة، أو من يقف موقفاً بطولياً في الدفاع عنها، كما أنه يستعمل تعبيرات الذمّ الأخلاقي التي تنبيء عن الادانة لكل من يقف ضدها أو من ينتزي عليها، ولهذا يكثر من استعمال ألفاظ مثل: الملحد، الفاسق، الفسقة، اللعين، الخائن، رأس المجرمين، ... وما أشبه ذلك، ويتلذذ بتصوير انتصار الجماعة، مثلما يرتاح الى وصف اندحار أعدائها بأسلوب يقوم على المشاركة الانفعالية. ويتصل بهذه الناحية حميته للدين وغيرته على المسلمين، وسأمثل على هذه الناحية بقطعة أوردها بعد أن وصف استيلاء الروم على بربشتر (سنة ٤٥٦) ففيها سنجد معظم عناصر أسلوبه النابعة من ذلك الموقف؛ يقول ابن حيان: « وقد أفشينا في شرح هذه الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة، طالما حذر عليها أسلافنا لحاقها بما احتملوه ممن قبلهم من اثارة، ولأشد مما أفشينا عند أولي الألباب ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع، وقد أُخذنا بالتواصل والأُلفة، وأصبحنا من استشعار ذلك على شفا جرف يؤدي الى الهلكة لا محالة، اذ قدر الله زمانها، هذا بالاضافة الى ما عهدناه في القرن الذي سلخناه من آخر أمد الجماعة على ادراك من لحق الذي قبله، فمثل دهرنا هذا فرس بهيم الشية ما ان يباهي بقرحة فضلاً عن شروخ غرة، قد غربل أهليه أشد غربلة فسفسف أخلاقهم، واجتث أعراقهم، وسفه أحلامهم وخبث ضمائرهم، فاحتوى عليهم الجهل، واقتطعهم الزيف، واركستهم الذنوب، ووصمتهم العيوب، فليسوا في سبيل الرشد بأنقياء، ولا على معاني الغيّ بأقوياء، شاء من الناس هامل، يعللون نفوسهم بالباطل، من أدلّ الدلائل على فرط جهلهم بشأنهم اغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية رسوله نبيهم عليه السلام، وذهولهم عن النظر في عاقبة أمرهم، وغفلتهم عن سد ثغرهم، حتى لظلّ عدوهم الساعي لاطفاء نورهم يتبحبح عراص ديارهم، ويستقري بسائط بقاعهم، يقطع كلَّ يوماً طرفاً منهم ويبيد أمة، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم، لهاة عن بثهم، ما ان يسمع عندنا في مسجد

من مساجدنا ومحفل من محافلنا مذكر بهم أو داع لهم فضلاً عن نافر اليهم أو مواس لهم، حتى كأن ليسوا منا، او كأن فتقهم ليس بمفضٍ الينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء، بخلنا بالغناء، عجائب مغربة فاتت التقدير، وعرضت للتغيير، فلله عاقبة الامور واليه المصير »[٤].

تعد هذه القطعة قمة في تصوير الموقف الذي ذكرته: من حرص على الجماعة وأسىً للفرقة وانتصار للدين مما ينبىء عن روح عميقة من التدين، وقد توسل الكاتب للتعبير عن كل ذلك بأسلوب توافرت فيه المعالم التالية، أسردها حسب ظهورها:

١ ـ الاستئناس بالتعبير القرآني: « وأصبحنا من استشعار ذلك على شفا جرف يؤدي الى الهلكة... الساعي لاطفاء نورهم... ولله عاقبة الامور » وهذا كثير لدى ابن حيان، وخاصة في وصف المعارك، ومن أمثلته أيضاً قوله: « القوا الى المشركين بأيديهم... الا من نجا به أجله وقليل ما هم... لا يملك لنفسه ولا لهن صرفاً ولا عدلاً »[٥].

٢ ـ اللجوء الى عبارات تصوّر العودة الى الفعل الالهي وأثره في أحداث التاريخ، من مثل: « إن قدر الله زمانها... فلله عاقبة الأمور واليه المصير » وهذا مبثوث على نحو كثير في كتاباته التاريخية من مثل: « نظر الله إلى عباده وسلط عليه أضعف الخليقة... حتى حكم الله؛ بالظهور لاقل الطائفتين عدداً ليري الله قدرته... »[٦]. وذلك كله متصل بروح التدين التي عبّر عنها بفساد الناس « لبعدهم عن طاعة خالقهم ورفضهم وصية رسوله ».

٣ ـ استعمال التمثيل والصور الشعرية: « فمثل دهرنا هذا فرس بهيم الشية... قد غربل أهليه أشد غربلة »؛ وهو كثير أيضاً ومن أمثلته في مواطن أخرى: « فأماغدره فالنار برأس اليفاع... فقدموا اليها كالقطا القارب ارسالا... دفتره الدف وتسبيحه السخف... »[٧].

٤ ـ التكثيف بتتابع المتعاطفات أو المتوازيات: « فسفسف أخلاقهم، واجتثّ أعراقهم، وسفّه أحلامهم، وخبّث ضمائرهم » وهو يعمد الى هذا اللون الاسلوبي كثيراً حين يريد أن يعمّق الاحساس بوضع أو موقف أو منظر، وله فيه تفنن متميز.

٥ ـ الركون الى السجع ان جاء عفواً لا استكراهاً: « فسفسف اخلاقهم، واجتث اعراقهم... شاه من الناس هامل، يعللون أنفسهم بالباطل... وذهولهم عن النظر في عاقبة أمرهم، وغفلتهم عن سد ثغرهم... قد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا بالغناء، عجائب مغربة فاتت التقدير... الخ ». ولو قيس ابن حيان الى كتاب عصره لكان في طليعة من لا يتعمدون السجع ولا يطلبونه، غير أن سجعه اكثر سطوعاً في رسائله الاخوانية، وفي

بعض مواقف العبرة العميقة مثل قوله: «وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل، ومراتب نصبت لغير طائل، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل فلم يحلوا منها بنائل»[٨]. إلا أنه لا يلبث أن يبارح السجع الى ما يؤثره من ازدواج.

٦ - الاتكاء على المخزون الثقافي: «شاء من الناس هامل» فهو مستعار من قول منصور النمري[٩]:

شاء من الناس راتع هامل   يعللون النفوس بالباطل

وهذا من أهم معالم أسلوبه، وان كان لا يكثر منه إكثار الغالبية من كتاب عصره، ومن أمثلة ذلك لديه: «وتفرقت الظباء عليه وكان على أجلّ من الحرش»[١٠] فهو يجمع بين مثلين: تكاثرت الظباء على خراش، وهذا أجل من الحرش، ومنه قوله: «باتت تتمخض له ليلة عن راغية البكر»[١١] مشيراً الى قصة قوم صالح الذين رغا فوقهم سقب السماء، وهكذا.

٧ - الارتياح الى تصوير الجوانب السلبية في الفرد أو في الجماعة، ومنه في هذه القطعة انحاؤه بالذمّ على أهل زمانه: «فاحتوى عليهم الجهل، واقتطعهم الزيف، وأركستهم الذنوب، ووصمتهم بالعيوب...». وقد كان الأصل في هذا كله لا يمثل ميلاً الى الذم ـ تشفياً او ارضاء لروح هجائية ـ وانما هو، وخاصة في الحديث عن الافراد، يمثل الدقة في ابراز جانبي الحسنات أو السيئات، أو الأخذ الصارم بمبدأ التجريح والتعديل، وهو ما جعل ابن بسام يتهمه بالثلب، ولكن حين نتدبر الامر نجد من ابن بسام ابرازاً متعمداً لجانب الثلب دون الجانب الآخر، ولو كان يستبيح اخفاءها لسكت عن عيوب ابن جهور ابي الحزم، ولم يدوّنها، بعد اذ شمله ابنه أبو الوليد بالإكرام.

هذه هي أهم السمات الاسلوبية التي تبرز في هذه القطعة، كما تبرز في سواها، فهي سمات عامة، ولكنها لا تمثل كلّ الخصائص الاسلوبية لدى ابن حيان، اذ أنها لا تبرز قدرته الفائقة على التحليل وابراز صور الصراع النفسي كما في قوله يصف العلاقة بين باديس بن حبوس وزهير الفتى: «فآثر شفاء نفسه عن النظر لعاقبة أمره، وأضمر الغدر، وقدم العذر، وأرسل من رسوله الى زهير ملطفاً في العتاب، مستدعياً تجديد المحالفة فسارع زهير الى ذلك وأقبل نحو باديس اقبال المستطيل عليه، المتصوّر له صورة اليتيم في حجره، المضطر إلى اتباعه وموافقته، فصار في تضييع الحزم والاغترار بالعجب، والثقة بالكثرة، والانخلاع من فضيلة الرأي وفائدة التجربة، ضداً للقصد الذي قصده، وآية للغابرين بعده، اذ جاء مدلاً بجمعه وكثرته، أشبه شيء بمجيء الأمير الضخم الى العامل من عماله، قد ترك رسوم الالتقاء بالنظراء المعهودة له ولمن قبله، من التوافق على المكان والاستظهار بآخر حدود الاعمال وغير ذلك من وجوه الحزم»[١٢]. فهذه الفقرة لا تصوّر مدى فهم ابن حيان للأصول والقواعد السياسية في التعامل وحسب، وانما ترسم صراع نفسيتين وتستبطن ما يجول فيهما؛ ولقد

استعان الكاتب على بلوغ ذلك بعناصر أشرت الى بعضها فيما سبق، ومنها التكثيف، ولكن هنا لونان من التكثيف مغايران قليلاً لما تقدّم: هنا تقوم المتوازيات على رصّ « أسماء الفاعل » متوالية: ملطفاً . . . مستدعياً . . . اقبال المستطيل . . . المتصوّر . . . المضطر، بحيث يجعل الجمل تتزاحم دون فرجة من راحة، كذلك هنا تكثيف المصادر الصريحة التي لا يخفف منها التنويع: تضييع . . . اغترار . . . ثقة . . . انخلاع؛ وبهذين اللونين من التكثيف يبدو أسلوب ابن حيان متعباً يعرض القارىء الى البهر؛ ان التكثيف يحمل في ذاته معنى « الايغال » وهو لون من ألوان المبالغة أو الجنوح اليها، ويتبدى شغف ابن حيان بالمبالغة في التعبيرات التي تمثل أقصى الغاية في مثل قوله: « فانكشفوا انكشافاً لم يسمع بمثله . . . فجاء بفتكةٍ أسقطت كلَّ من فتك في الاسلام قبله . . . وضرب بأعلى سهم وأفوز قدح في التجارة . . . »[١٤] .

وقد يلجا ابن حيان في أسلوبه الى الإغراب: فيستعمل عبارات غريبة مثل: ابذعروا عباديد، النازلين في ضبنه، فأبت نفسه النجوع له، المتبنّك للنعماء[١٥] . . . لست أقول ان هذه ألفاظ لا تجري في الاستعمال، ولكنها ليست من المألوف في الكتابة التاريخية، كذلك فانه يكثر من وزن « استفعل »، وهذا يتصل بحرصه على التفرد بابراز صيغ غير مألوفة أيضاً مثل: « ايراطه » بدلاً من « توريطه » وأكثر ما يحدث ذلك في صيغ المصادر والجموع. وكل ذلك يشير الى قدرة لغوية فذّة، وميل الى تطويع الألفاظ في الاشتقاق والقياس، وثروة معجمية بالغة.

مقطع القول في أسلوب ابن حيان أنه أدبي تصويري على حظ كبير من القوة والجزالة وامتداد النفس، والتفنن في اختيار التعبير، واستطراف الألفاظ، والاغراب في اللفظ وطبيعة التركيب، الى حد التوعّر، وهذا يفضي الى « صعوبة » وشيء من غموض، قد يكونان تحدياً للقارىء وحفزاً له الى التأمل والتبصر في الجزئيات.

- ٢ -

ليس من غاية هذا البحث أن أتحدث عن الصراع بين المؤرخ والأديب لدى ابن حيان، ولا أن أجيب على سؤال من يسأل: هل جار هذا الاسلوب الادبي على الدقة التاريخية، هل أضعف من روح الموضوعية أو شكك في مدى الانصاف. ولكنني حين عرضت هذه السمات الاسلوبية المميزة التي وجدتها فيما « أنشأه » من تاريخ، وتمثلها على الوجه الذي عرضته، ذهبت أستقريها في التاريخ الذي كتبه نقلاً عن مؤرخين سابقين، فوجدت معظمها شاهداً هنالك، أعني في صفحات الاجزاء المتبقية من « المقتبس »، وليس من المستحسن أن أعيد ذكر جميع تلك السمات، مورداً الامثلة عليها، فذلك من قبيل التكرار، ولكني سأعرض هنا لبعضها رجاء أن يجزىء ذلك عن ايرادها جميعاً.

١ - يجد قارىء المقتبس أن الحكم الاخلاقي والادانة الخلقية يواكبان ذكر المنتزين على الجماعة، في مواطن متعددة، وها هو ابن حيان ينقل عن الرازي: «فيها أهلك الله الخبيث عمر بن حفصون، جرثومة النفاق، وإمام الضلالة، وكهف الخلاف وموقد نار الفتنة وملجأ أهل المعصية...»[١٧] (لاحظ التكثيف أيضاً في حشد الصفات).

٢ - كما يجد الاستئناس بالتعبيرات القرآنية من مثل: أرهقه وختم على قلبه؛ وأفاء الله عليهم مغانم كثيرة... ثم ان الله تعالى زلزل أقدامهم... فأفرغ الله صبره عليهم وثبت أقدامهم... وأقبل بعض رؤسائهم على بعض يتلاومون...»[١٨] (وفي بعض هذه العبارات ادخال للفعل الالهي في مجال التاريخ).

٣ - شيوع استعمال وزن «استفعل» بكثرة: «فبادروا الى الاستغلاق داخل حصنهم؛ والاستبلاغ في سمة العمارة؛ واستقوى عدته واستقوده على الجيش؛ ثم استعزم على الايغال؛ واستذروا من كنف السلطان السعيد في أمنع الاذراء...»[١٩].

٤ - التمويه بالمبالغة التي لا تحدّد وإنما تهوّل: «في جيوش تغص بها السبل ويضيق عنها الفضاء الاوسع... في عساكر كعدد الحصى... بأنفذ عزم وأوكد حزم وأقوى نية... في أتم تعبئة وأهذب ترتيب... أرقى ما كان في غلوائه، وأطمع ما هو بالاحتواء على سلطانه، أرهب ما كان الناس له وأخوفهم لعدوانه...»[٢٠].

٥ - الصور الشعرية: فنهض المسلمون الى أعدائهم نهوض الاسد المحرَّبة... وجبَّ بقهرهم غارب الفتنة...»[٢١].

٦ - الاغراب باستعمال ألفاظ أو صيغ غير مألوفة، مثل: «وفروا الى الاجبل الشمخ (بدل الجبال الشامخة)؛ ضخم الجرازة.... لقيه كفاحاً... وتوسط المأقط»[٢٢].

٧ - استعمال الاسلوب الرفيع (الملحمي) في وصف المعارك ومواطن الكرّ والفرّ: مثل «لحقته أريحية أشر حرَّك لها فرسه مجهداً له، الى ان [حل في] سهب من الأرض لا يعرفه، فانطلق مالثاً فروجه، فردّاه في مهواة أقحمه اياها، فصرعه ورضّه»[٢٣] ومثل قوله: «فدارت بينهم حرب عظيمة كأشدّ ما يكون بين المتحاربين، استحرت في الجلبة وتلظت، وصار المسلمون في صليها كرجل واحد في الارتماء على المشركين والتنزي الى قتالهم قد وطنوا على الموت وأخلصوا لله نياتهم، فأنزل الله صبره عليهم وأيدهم بملائكته وقذف الرعب في نفوس الكفرة...»[٢٤].

هذه أمثلة وحسب، وهي قليل من كثير، ومعظمها منسوب إلى مصادر ينقل عنها ابن حيان، وهي تدفع المرء بقوة الى أن يتساءل ما هو سرُّ هذا التشابه وكيف يمكن تفسيره (مع تحفظ ضروري في هذا المقام وهو أن

كثيراً من صفحات الاجزاء المتبقية من المقتبس تهتم بتعداد الولاة والقُضاة، وتعد صفحات لذكر حقائق مجردة لا يلائمها الاسلوب التحليلي أو الوصفي المكثف، وان هناك عدداً من الوثائق والرسائل المقتبسة التي تعبر عن أسلوب كاتبيها).

إزاء هذه الظاهرة يستطيع الدارس أن يختار أحد موقفين: اما أن يقول ان هذا التشابه يدلّ على قسط مشترك بين ابن حيان والمؤرخين الذين ينقل عنهم، فهم مثله يحرصون على الجماعة ويدينون المنتزين عليها والواقفين في وجهها، وهم أيضاً ذوو غيرة على الدين وروح دينية عميقة، وقد تأثروا بالقرآن ولديهم مخزون من محفوظ ثقافي، ولهم غرام بالتفرد الاسلوبي وهم يتأتون الى ذلك بطرق مختلفة، ومن اختار ذلك لم يعدم ان يحسَّ ببعض الوهن في الآراء التي يسند بها قضيته؛ واما ان يذهب الى أنَّ «قال فلان» لا تعني النقل الحرفي عند ابن حيان، لا لأنه يحذف (فالحذف ضروري أحياناً وطبيعي في الوقت نفسه) وانما لأنه يزيد شيئاً من عنده على النصّ الذي ينقله، ويغيره بحيث يخرجه أقرب الى أسلوبه، وهذه في حد ذاتها تهمة غير يسيرة الشأن، وخاصة ان كان بفعله هذا يتصرَّف تصرُّفاً يخرجه عن مجال الحقائق التاريخية.

من أجل ذلك كله رأيت ان خير ما يوضح هذا الموقف، مقارنة مانقله ابن حيان عن غيره بأصوله حيثما وجدت، فجمعت ثلاثة عشر نصاً نقل منها واحد عن طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، وثلاثة عن نقط العروس لابن حزم، وثمانية عن تاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية، وواحد عن تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس لابن الفرضي، وقارنت نقل ابن حيان بأصول تلك النصوص - كما وصلتنا - ؛ وهذه هي النصوص المذكورة:

المقتبس: ١٣ - ١٤ (أنطونيه)

أبو محمد الأعرابي الحجازي: شكر ابراهيم [ابن حجاج] يوماً في مجلس حفله على فضل أسداه إليه، فقال في كلامه: تالله أيها الأمير ما سيدتكَ العرب الا بحقك - يقولها بالياء - فانكرها أبو الكوثر الخولاني وكان حاضراً فقال: يا أبا محمد ما هذا الشذوذ؟ العلماء بالعربية عندنا لا يقولون الا سوّدتك، فقال يخطئون ويصحفون، السواد السخام، فانتهر ابراهيم أبا الكثير وقال: تتسورون على الأعراب في لغاتهم وتعارضون من ينطق بالسليقة!! فخجل أبو الكوثر وكتب بالخبر الى يزيد بن طلحة العبسي (المعروف بالفصيح، وكان من أشهر من بغربي

طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ٢٧١ - ٢٧٢ (طبقة ثانية)

أخبرني محمد بن عمر، أخبرني غير واحد ممن شهد ابراهيم بن حجاج وقد قال له أبو محمد الاعرابي العامري شاكراً على شيء اصطنعه إليه: تالله ما سيدتك العرب الا بحقك، فقال أبو الكوثر الخولاني - وكان حاضراً - يا أبا محمد، العلماء عندنا بالعربية يقولون: سوّدتك، فقال: السواد السخام يخطئون ويصحفون، فانتهره ابراهيم وقال: تتسور على الأعراب في لغتهم!! فكتب أبو الكوثر الى يزيد بن طلحة بالخبر فأجابه: المعروف «سودتك بالواو» ولعلَّ ما ذكر أبو محمد لغة لبني عامر، فلما وردت السحاءة على أبي

الاندلس من العلماء بالعربية) فأجابه: ان المعروف «سودتك» بالواو، وقال: فلعل ما ذكره الأعرابي لغة قومه، فعرض أبو الكوثر جوابه على الأمير ابراهيم فلم يزدد الأعرابي بذلك الا محكاً ولجاجة، وشدّ شكيمته ابراهيم نصرة وعصبية وأحضر يزيد بن طلحة فوبخه وذهب الى تثبيت قول الأعرابي، فقال له يزيد: أصلح الله الأمير ان بيان العلم ليس يجيء من جهة المغالبة، وانما يصحّ بالانصاف واتباع الحقيقة، فليجبني أبو محمد عما أسأله عنه، فقال الاعرابي: قل، قال يزيد: كيف تقول العرب: ساد يسود أو ساد يسيد؟ قال الاعرابي: بل ساد يسود، قال يزيد: هذه الواو معها في الفعل، فكيف تقول العرب: السؤدد أو السيدد؟ قال: بل السؤدد، فقال يزيد: هذه الواو ثابتة في الاسم، ثم قال يزيد: أي منزلة عندكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الفصاحة؟ قال الأعرابي: فوق كل منزلة، قال يزيد: فقد ثبت عندنا أنه قال: تفقهوا قبل أن تسوّدوا، حديث لم يطعن فيه أحد من النقاد، كما طعن في الأحاديث التي وقع فيها الغلط، فلجَّ الأعرابي مع ذلك كله وقال: يا أهل الأمصار ماذا صنعتم بالكلام؟!

الكوثر قال يا أبا محمد، أنكر الاستاذ ما ذكرت، وحكى له قوله، فصاح الاعرابي وهاج، وبعث ابراهيم في طلب يزيد، فلما حضر خرج عليه فقال له: أتتسور على الرجل في كلامه؟ فقال له ابن طلحة: ان العلم ليس من جهة المغالبة ولكن من جهة الانصاف والحقيقة، فليجبني أبو محمد عما أسأله عنه، فقال له: سل، فقال يزيد: كيف تقول العرب: ساد يسود أو ساد يسيد؟ فقال الاعرابي: ساد يسود، فقال يزيد: هذه الواو معنا في الفعل، فكيف تقول العرب، السؤدد. أو السيدد، فقال: السودد، فقال يزيد، هذه الواو ثابتة في الاسم، ثم قال: أي منزلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الفصاحة؟ فقال الاعرابي: فوق كل منزلة، قال يزيد: فقد ثبت عندنا أنه قال: تفقهوا قبل أن تسودوا، وهذا حديث لم يطعن فيه أحد من علماء اللغة كما صنعوا في سائر الأحاديث التي وقع فيها الغلط، فلجَّ الأعرابي وقال يا أهل الامصار: ماذا صنعتم بالكلام!!

تعليق: هذان النصّان متقاربان، وما بينهما من فروق لا يدلّ على تصرف ابن حيان في الأصل لاحراز مستوىً أسلوبي خاصٍّ فيه، وكلّ ما صنعه فيه يتلخص فيما يلي:

١ ـ أدرج في نصه تعريفاً بيزيد بن طلحة لأنه في حاجة الى ذلك، بينا الزبيدي يترجم لابن طلحة فلا يحتاج الى هذه الزيادة.

٢ ـ جعل الأعرابي حجازياً وهو عند الزبيدي عامري (وهو يتكىء في هذا على ابن الفرضي).

٣ ـ غير في النص: «على شيء اصطنعه اليه» الى: «على فضل أسداه اليه». كما غيَّر «من علماء اللغة» فجعل العبارة «من النقاد»، وبدلاً من «فصاح الأعرابي وهاج» قال: «فلم يزدد الأعرابي بذلك الا محكاً ولجاجة».

٤ ـ زاد في نصه العبارات التالية: ما هذا الشذوذ ـ وتعارضون من ينطق بالسليقية ـ فخجل أبو الكوثر ـ وشد شكيمته ابراهيم نصرة وعصبية (وهي كلها عبارات تفسيرية لا تغير بشيء في روح القصة نفسها).

٥ ـ حذف ذكر السحاءة (وذلك مفهوم ضمناً).

المقتبس: ٤١ (انطونية)

وقد صرَّح الفقيه أبو محمد ابن حزم بذمّ هذا الامير عبدالله... فذكر أنه كان قتالاً تهون عليه الدماء مع الذي كان يظهر من عفته، فانه احتال على أخيه المنذر بن محمد على ايثاره اياه وواطأ عليه حجامه بأن سمَّ له المبضع الذي فصده به وهو نازل بعسكره على ابن حفصون، فكانت منه منيته وتطوق دمه.

ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد آخر محمداً والد الخليفة الناصر لدين الله وأخاه عدوه المطرف.

ثم قتل أخوين له معاً أيضاً، قتل هشاماً بالسيف والقاسم أخاه بالسمّ، الى من قتله من غيرهم.

نقط العروس لابن حزم
(الجزء الثاني من الرسائل)

المنذر: قيل سمه أخوه في مبضع فصد به (ص:١٠٤)

عبدالله بن محمد: قتل ابنيه محمداً والمطرف (ص:٨٨).

عبدالله بن محمد قتل أخويه هشاماً بالسيف والقاسم بالسم (ص:٩٠).

تعليق: باستعمال ابن حيان لفظة «فذكر» أباح لنفسه ايراد المعلومات الموجزة التي أوردها ابن حزم في نقط العروس ومنحها ما يريده من التفصيلات، فان ابن حزم لم يقل ان الامير عبدالله كان قتالاً تهون عليه الدماء، ولكن هذا مستنتج من طبيعة تصرفاته، ولم يذكر شيئاً عن عفته، ولم يتحدث عن المكان الذي قتل فيه المنذر... الخ.

المقتبس (٥ : ٣٧)

وما كان عبدالرحمن الناصر لديه بالبعيد من جدّ جده الحكم بن هشام في انهاكه في المعاصي والتباسه بالريب وعبثه في الرعايا واستهتاره باللذات وتغليظ العقوبات، فهو الذي علق أولاد السودان في ناعورة قصره **بدلاً من الأقداس الغارفة للماء فأهلكهم**، واستركب رسيس الماجنة مضحكته في موكبه بسيف وقلنسوة وهي عجوز سوء فاجرة، الى مناكير كانت له باطنة، الله أعلم بها.

نقط العروس (رسائل ابن حزم ٢ :٧٦).

عبدالرحمن الناصر: وله تعليق أولاد السودان في الناعورة وركوب رسيس بقلنسوة وسيف في موكبه. قال أبو محمد: ورسيس هذه كانت امرأة من دار الخراج رفيعة مهيبة اتصلت بالناصر وخفَّت عليه حتى حمله ذلك على أن أركبها مكشوفة في موكبه بقلنسوة وسيف تقلدته، على بغل خلفه بينه وبين الأولاد في يوم سرور، وشق هكذا قرطبة على باب العطارين من الربض الغربي كله الى الزهراء.

تعليق: يتلخص ما قام به ابن حيان ازاء نص بان حزم هنا بما يلي:

١ ـ زاد على تعليق أولاد السودان بأنهم وضعوا بدل الاقداس الغارفة للماء، وان ذلك نجم عنه هلاكهم، وذلك ما لم يقله ابن حزم (وجعل الناعورة في قصره فحدد موقعها).

٢ ـ وصف رسيس بأنها ماجنة مضحكة، بينا ذكر ابن حزم أنها كانت رفيعة مهيبة (لعلها رقيعة مهينة فيقارب ما يقوله ابن حيان).

ثم وصفها بأنها «عجوز سوء فاجرة» ولم يشر ابن حزم الى سنها، أما قوله «فاجرة» فانه ترجمة لقول ابن حزم «امرأة من دار الخراج». وأسقط انها كانت «مكشوفة» ولعله اكتفى بصفة «فاجرة» كما أهمل تفصيلات هامة ذكرها ابن حزم مثل أمها كانت على بغل، وان اليوم كان يوم سرور، والطريق التي سلكها الموكب الى الزهراء...

٣ ـ أبهم على القارىء مهوّلاً بقوله: «الى مناكير كانت له باطنه الله أعلم بها» وهو شيء لم يرد له أي تلميح عند ابن حزم.

المقتبس (٥: ١٣٢)

سليمان بن عمر بن حفصون (المشهور بالبسالة) ثار على أبيه عمر بن حفصون (المنتزي على خلفاء بني أمية بكورة ريّه من أرض الاندلس، فخالفه وامتنع عليه، ثم عاد لمثل ذلك) فامتنع بمدينة أبذة وحارب أباه عمر (وصمد له في القتال مواجهاً) فصبّ عليه سيفه وجرحه، فأعجب ذلك منه عمر أباه (إمام الفساق) وفخر به.

نقط العروس (الرسائل ٢: ٨٩).

سليمان بن عمر بن حفصون: قام على أبيه بأبذة وحاربه وصدّه، وكان أبوه يعجبه ذلك، ضرب أباه بالسيف في بعض حروبه فسرَّ أبوه بذلك وافتخر به.

تعليق: أورد ابن حيان تفصيلات لم يوردها ابن حزم، فوصف سليمان بأنه «المشهور بالبسالة» ومن وقف تلك المواقف استحق مثل هذا الوصف، وتحدث عن انتزاءين لسليمان بينا اكتفى ابن حزم بذكر واحد؛ ولم ينس أن يصف عمر بن حفصون بأنه «إمام الفساق» وهو شيء لم يذكره ابن حزم؛ أما المقارنة بين «صمد له في القتال مواجهاً» وبين «صدّه» فتدلُّ على أن «صمد» أدق، وان في نص ابن حزم تصحيفاً.

المقتبس (مكي): ١٤٩

كان نصر الخصيّ الجريء المقدم الوساع الفهم قد غلب على قلب مولاه الامير عبدالرحمن بن الحكم واستظهر على حراصته مكانه لديه بانقطاعه الى حظيته طروب أم عبدالله الغالبة عليه من بين جميع نسائه، وحطه في شعبها وممالأته اياها على ما تسعى له من تقديم ولدها عبدالله للأمر بعد

تاريخ افتتاح الاندلس: (٩٦ : ٩٧)

وكان لطروب أم عبدالله بن عبدالرحمن على عبدالرحمن ابن الحكم تحكم أوجبت به صرف الأمر الى ابنها عبدالله وكانت تصطنع لذلك أهل القصر من النساء والفتيان وأكثر الخدمة طمعاً في ذلك. وكان نصر مبغضاً لمحمد مائلاً مع عبدالله ابن طروب، وكان قد مال عبدالرحمن آخر عمره

الامير أبيه على جميع الأراجح الاكبرين من ولده متى حان حينه، فخالص السيدة تشديداً واخلصت له واستوى له بذلك أمره وأصبح ملك عبدالرحمن في يده يدبـره كيـف يشاء فلا يرد له أمر قد أجهد سعيه في آخره أمده في جهره وسرّه بالتنويه بعبدالله ابن سته طروب والاشادة بذكره واستمالة طبقات الناس بالرغبـة والرهبـة اليـه والعمـل على اختزان الخلافة عن أخيه محمد بكر والده الأمير عبدالرحمن ومفضلهم المشار اليه، الى خالفتهم ابن طروب هذا وسوقها اليه، يتأتى لذلك ويأتيه من جميع أبوابه، والقضاء يبعده عنه ويسد دونه طرقه، وهو يرصد لوجبة الامير عبدالرحمن مـولاه ليقضي في عبـدالله قضـاءه فيمكـن لعبـدالرحمن ويستأخر في عبدالله قضاءه فيمكن لعبدالرحمن ويستـأخـر يومه فيشق ذلك على الخصي ويرهب قوته حتى سوّلت له نفسه اغتيال مولاه عبدالرحمن والطـاف التـدبير عليـه كما يتمكن من تقديم عبدالله مكانه ولا يـرهـب الخلـف عليـه لكثرة أنصاره من أهل الدار وغيرهم وفشوّ صنائعه فيهم، فيتم له بابن طروب الاحتواء على الملك ويؤخر عنه محمداً المرشح له وغيره ممن يطمح فيه. فوثق في ذلك بالحراني الطبيب، وكان في عداد صنائعه.

وقدر منه ـ مع الوفاء ـ الشره الى ما يبذله له، فخلا به وذكره اياديه لديه، وتدارسا فيما ينويه له وقال له: هل لك في احراز حسن رأيي للابد وحوز جزيل صلتي للآخر، فقال له الحراني: هذه هي المنية التي لا وراءها طلبة، فمن لي بنيلها فقال له: هذه ألف دينار معجلة بين يدي الجري بالحاجة واعمل لي سؤر الملوك، الذي يـدني مـن الأجـل ويقلب الدول ودعني لمكافأتك ان انقضت حاجتي فوالله لأتجاوزن بها ظنك. فأراه القبول لما بذله والقيام بما كلفه، وخرج عنه وقد عدلت البدرتان جناحيه، فعمل ذلك الخلط باسم الدواء المسهل، كما رسمه له، وأجهد رأيه في تقويته واحتـال في أن دسَّ في خفيـة الى «فجـر» حظيـة الامير عبدالرحمن ضرّة طروب مع بعض من كان يستطب لما عنده

الى ابنه محمد، فشق ذلك على نصر، فأراد قتل مولاه ليقدم عبدالله ويقتل محمداً، فبعث في الحراني الطبيب وقال له: كيف رأيك في [احراز].

حسن رأيي؟ فقال له: ذلك الأمل لو لمغته، فقال له: هذه ألف دينار واعمـل لي سـون [في الأصـل شـون] الملوك، فلم يمكنه عصيانه، وقبض الألف دينار منه وعمل البسون وأوصى الى فخر [فجر] فأعلمها الأمر وسألها أن تحذر الأمير من شربه.

ثم قال نصر لعبدالرحمن ان يتوحش للدواء (؟) فأراه ذلك، فيموت به في اليوم الثاني (؟)..... أمره بشربه فشربه.

من ثقات قهارمتها يشير لها على ما دبر على الامير من طريق العلاج ويأمرها ان تحذره من شرب ما يأتيه نصر به أو يرسله، فوقاه جده بذلك، وسقى الخصي معيناً له.

وقد كان الامير شكا الى نصر خلال ذلك خلطاً تحرك به عدل له عن أخذ الدواء الذي من عادته، واعداده ليوم فارقه على التوحش أمامه، فكان من توطئة نصر لذلك ما قدر أنه واقع به لا محالة، وبكر بذلك الخلط المسموم الى الامير في اليوم الذي ربط فيه موعده، فأصابه حذراً للذي سبق اليه، فتعلل على نصر، ووصف وعكاً طاف به ليلته فنكث مرَّته فلا فضل فيها للدواء، وأشار عليه بشربه،

اذ لم يزل كثيراً يسعده في مثله، فذهب يعتذر بعدم التوحش له، فزجره وقال: سبحان الله، شيء، اجتهدت لي فيه وألطفت تركيبه تخاف غائلته؟! عزمت لتشربنهُ، فعلم نصر أن خلافه لا يمكنه فشربه بين يديه، واستأذنه في الخروج الى منزله فأمره، فانطلق يركض وركضه يزيده شراً، واستغاث بالحراني فعرفه بما جرى عليه والسمّ يجدّ به، فقال له: عليك بلبن المعز فان شربه يفتّر عنك، ففرق غلمانه في طلبه فعوجل قبل أن يؤتى به ومضى لسبيله.

ثم قصد الى داره فبعث في الحراني فشكا اليه ما دار عليه فأمره بأخذ لبن الماعز فَعجلَ عليه، وانقضت حاجته [اقرأ: حياته].

تعليق: من الواضح ان المقارنة بين النصين عسيرة لا لاضطراب النصّ وحسب لدى ابن القوطية، بل للتفاوت الكثير في مستوى التعبير عن الأحداث، واستعمال صيغ يتفرد بها ابن حيان، من ذلك: الجريء المقدم [المقدام] الوساع الفهم ـ استظهر على حراصة ([حراسة] مكانه لديه بانقطاعه . . . ـ وحطه في شعبها ـ على جميع الأراجح الاكبرين ـ والعمل على اختزان الخلافة عن أخيه ـ وهو يرصد لوجبة الامير ـ خرج عنه وقد عدلت البدرتان جناحيه ـ فوقاه جده بذلك ـ ووصف دعكاً طاف به ليلته ونكث مرته . . . الخ.

كذلك فان نصّ ابن حيان يتكىء كثيراً على المواقف النفسية، وضروب التلاقي والصراع (التدرج على التصميم في نفسية نصر/الصراع بين الجشع والغدر في نفس الحراني).

وفي نص ابن حيان رفع متعمد لمستوى الحوار.

وهناك تحوير متعمد جعل دور طروب يبدو ثانوياً بالنسبة الى ذلك الاصرار الشديد الذي أسند الى نصر في نصّ ابن حيان.

واذا جرَّدت نصّ ابن حيان من الايغال في التحليل واصطناع أسلوب خاص، ودفع بعض الظواهر الى المقدمة دون بعضها الآخر وجدت النصين لا يتفقان الا على الخطوط الاولى في المؤامرة وتنفيذها.

المقتبس (مكي): ١٦٧ - ١٦٨

لما توفي الحاجب عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث صدر دولة الامير عبدالرحمن تنافس الوزراء كلهم في خطة الحجابة بعده، وكدوه بالوسائل والشفاعات حتى أضجروه، فأقسم أو اعتقد الا يوليها واحداً منهم، وعطلها مدة، ثم صيّرها الى رجل من أقادم صنائعه كان له اتصال به قبل الخلافة أحظاه لديه، اسمه سفيان بن عبد ربه، أصله من برابر بيانه، لم يكن له قدم وكانت له يقظة ومعرفة فتولى حجابته أعواماً الى أن مات، فولى عبده عبدالرحمن بن غانم، ثم مات ابن غانم أيضاً فصارت الحجابة الى عيسى بن شهيد ثم الى عبدالرحمن بن رستم يداول الأمر بينهما الى أن مات ابن رستم فاتصلت الحجابة لعيسى بن شهيد بقية أيام الامير عبدالرحمن.

تاريخ افتتاح الاندلس: ٨٣ - ٨٤

ولما توفي عبدالكريم بن مغيث في صدر خلافته تنافس الوزراء كلهم في خطة الحجابة واضطره كل واحد الى أن لا يولي غيره، فأخذته ضجرة، فاقسم الا يولي واحداً منهم، وأمر بالاقراع بين الخزان، وكان الخزان يومئذ موسى بن حدير شيخ الخزان، وابن بسيل الملقب بالغماز وطاهر بن أبي هارون، ومهران بن عبدربه من البربر لا قديم له، وكان له به اتصال وهو ولد، فخرجت اليه القرعة، فولي الحجابة أعواماً، ثم مات فولي عبدالرحمن بن غانم، ثم مات عبدالرحمن بن غانم فصارت الحجابة بين عيسى بن شهيد وعبدالرحمن بن رستم فاتصلت الحجابة لعيسى بن شهيد الى أن توفي عبدالرحمن [بن الحكم].

تعليق: من الواضح أن النصين يحتفظان بتعبيرات متشابهة تماماً مثل: تنافس الوزراء كلهم في خطة الحجابة - فاتصلت الحجابة لعيسى بن شهيد... ولكن لا يخفي أثر قلم ابن حيان في اعادته صياغة بعض التعبيرات مثل: كثروة بالوسائل، من أقادم صنائعه (صيغة: أقادم بدلاً من قدماء) أو تلطيف بعض الفجاجة في بعضها، من ذلك قول ابن القوطية «وكان له به اتصال وهو ولد» فجعله ابن حيان «كان له به اتصال قبل الخلافة أحظاه لديه»، أو اضافة بعض الصفات التي تسوّغ تعيين سفيان (أو مهران) مثل «وكانت له يقظة ومعرفة»، أو التدقيق في تبيان الفرع البربري الذي اليه ينتسب وموطنه ولكن هذا النص اخباري لا يتضمن مواقف نفسية او عاطفية حاسية، وهذا ما كفل بقاء التقارب بين الصيغتين، على أساس السرد للأسماء. واذا قلنا ان نصّ ابن القوطية قد دخل عليه الحذف والاختصار من عمل شخص غير المؤلف، وجدنا مما يدفع هذا ذلك التفصيل في ذكر الخزان والاقراع بينهم وهو شيء لم يرد في نص ابن حيان.

المقتبس (مكى) : ١٦٨

والأمير عبدالرحمن أول من ألـزم هـؤلاء الوزراء الاختلاف الى القصر كـل يـوم والتكلم معهـم في الرأي والمشورة لهم في النوازل، وأفردهم ببيت رفيع داخل قصره مخصوص بهم يتصدرونه اليه ويجلسون فيه فوق أرائك قد نضدت لهم، يستدعيهم اذا شاء الى مجلسه جاعة وأشتاتاً يخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته، ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه، واذا قعدوا في بيته أخرج رقاعه ورسائله اليهم بأمره ونهيه فينظرون فيما يصدر اليهم من عزائمه ـ جرى على ذلك من تلاهم الى اليوم.

تاريخ افتتاح الاندلس: ٨٣ .

والامير عبدالرحمن أول من رتب اختلاف الوزراء الى القصر والتكلم في الرأي، على ما هـو جـار الى اليوم.

تعليق: ان التفصيلات الكثيرة التي يوردها ابن حيان لا يقف ازاءها ما يوازيها في نصّ ابن القوطية، فهو قد أخبرنا ان الاختلاف الى القصر كان يومياً، وان هناك غرفة خاصة للاجتماعات، قد نضدت فيها الارائك للجلوس، وان الاجتماع قد يكون عاماً، وقد يقتصر على كل فرد على حدة، وانهم لا يباحثونه بعرض آرائهم فقط في المشكلات التي ترفع اليه، وانما يطلعون على ما يكتبه من رسائل ومنشورات، ويعرفون ما يجري في الدولة من شؤون (وقد يكون لهم تعليق على ما كتب).

هل هذه التفصيلات كانت موجودة على نحو ما ثم حذفت ايجازاً؟ لست أعتقد ذلك، وانما الذي أراه أن ابن حيان أخذ الفكرة الأصلية وهي « فكرة الشورى » ثم استند في تفصيلاته الى ما جرت به العادة حتى أيامه في الدولة الاموية ـ العامرية بالاندلس، فهو انما يوضح « تقليداً » معيناً ويرده الى أصل نشأته. ومن غرامه بالتفصيلات انه تحدث عما يدور بين الخليفة (الامير) والوزراء في موضعين:

(١) التكلم معهم في الرأي والمشورة في النوازل.

(٢) يخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته (ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه)... الخ.

المقتبس (مكى): ١٦٩

لم يختلف أحد من شيوخ الاندلس في أنه ما خدم ملوك بني أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غاية ولا أكرم اصطناعاً ولا أرعى لذمة ولقد كان الحاجب قبله عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث بهذه الصفة، على زيادة خصاله وأدواته على عيسى الا في باب كرم الصنيعة واستتمامها، فلم يك يفضله درجة، بل كان عبدالكريم يقصر عن عيسى في باب قبول الهدية وتجويز المكافأة على قضاء الحاجة، فانه كان يقبل ذلك ولا يأباه، وكان عيسى على الضدّ منه البتة وكان يهجر من عرضه اليه، ولا يرضى في من يتقلده من صنائعه ويشمله بنعمته الا بغاية التشريف والانهاض والتخويل والامداد.

تاريخ افتتاح الاندلس: ٩٤

ولم يختلف مختلف من شيوخ الاندلس انه لم يخدم بني أمية بالاندلس اكرم منه [أي عيسى بن شهيد] عناية وأكثر اصطناعاً (في الأصل: مطاعاً). وكان عبدالكريم بن مغيث الحاجب الكاتب بهذه الصفة الا أنه كان يقبل الهدية والمكافأة على قضاء الحاجة، وكان عيسى بن شهيد لا يقبل شيئاً من ذلك، وكان عيسى بن شهيد لا يرضى في من عُنِيَ به الا بغاية التشريف.

تعليق: من الواضح مدى التقارب الشديد بين النصين، والتغييرات أو الاضافات الاسلوبية التي صنعها ابن حيان انما جاءت للحفاظ على درجة معينة من النغمة التي تعودها في كتابته (مثلاً ايراد ثلاثة تعبيرات متلاحقة بدلاً من اثنين: « اكرم غاية ولا أكرم اصطناعاً ولا أعمل لذمة) أو بأربعة بدلا من واحد: « بغاية التشريف والانهاض والتخويل والامداد ». وهناك اضافات تزيد الى المعنى ولكنها لا تغير الجوهر مثل:

١ - زيادة خصال عبدالكريم وأدواته على خصال عيسى وأدواته.

٢ - هجر عيسى لكلّ من عرض عليه هدية أو مكافأة.

المقتبس (مكى): ١٧٩

ألفى الامير عبدالرحمن بن الحكم على قضاء والده الامير الحكم، سعيد بن محمد بشير المعافري... فأمضاه بعده ومحمد ابن شراحيل المعافري جد بني شراحيل الذي ينسب اليهم المسجد والدرب (بالربض الغربي) ثم الفرج بن كنانة (الكناني) الشذوني ثم يحيى بن معمر الالهاني الاشبيلي ثم عزله لرفع (الفقيه) يحيى بن يحيى عليه، ثم الاسوار بن عقبة الجياني ثم ابراهيم بن العباس المرواني جد بني أبي صفوان هؤلاء القرشيين الوجوه بقرطبة، ثم عزله - زعموا - لكلمة

تاريخ افتتاح الاندلس: ٨٠ - ٨١

فمن قضاته سعيد بن محمد بن بشير، وجده على القضاء لأبيه فأمضاه بعده، ومحمد بن شراحيل المعافري جد بني شراحيل الذي ينسب اليه المسجد والدرب (وأبو عمر ابن بشير)، وفرج بن كنانة الشذوني ويحيى بن معمر الالهاني الاشبيلي ثم عزله لرفع يحيى بن يحيى عليه، وولى الاسوار بن عقبة الجياني ثم ولي بعده جد بني صفوان القرشيين (في الأصل: القرشي)، ثم عزله لكلمة خاطبته بها امرأة فلم

خاطبته بها امرأة (تخاصمت اليه بمجلس نظره) فلم ينكرها، وذلك ان قالت له: يا ابن الخلائف، انظر اليّ نظر الله اليك، فلم يغير عليها، فنماها الى الامير موسى بن حدير الخازن الاكبر، ورفع اليه صفحة يقول فيها: «ما ينبغي للأمير ان يشرك في سلطانه من يخاطب بمثل ما يخاطب به ويحلى تحليته»، فذاك الذي أوجب عزله.

ينكرها، قالت له: يا ابن الخلائف، انظر مني نظر الله اليك. فلم ينكر ذلك، فذكر انه رفع ذلك إليه موسى بن حدير الخازن الأكبر. وقال له: [لا] تشرك في سلطانك من يتسمى باسمك، فهو الذي أوجب عزله.

تعليق: هذا نصّ يقوم على التعداد المتوالي، فكل الزيادات التي أوردها ابن حيان توضيحية، ولم يحاول التصرف في الاسلوب، الا في صيغة الخطاب الذي رفعه موسى بن حدير الى الامير، في أنه رفع إليه ذلك كتابة (لا مشافهة).

المقتبس (انطونية:) ٧

(لم يكن في قضاة عبدالله أفضل من محمد بن مسلمة ولا أشبه سيرة بالنمط الأول) استقدمه الخليفة عبدالله من موطنه بقبرة، ومنها كانت أصولهم، فاستقضاه (على كره)، فعدل (جهده وعفّ تواضع واقتصد) فذكّر من سيرة صالح القضاة.

تاريخ افتتاح الاندلس: ١٢١

واستقدم أخاه محمد بن مسلمة من قبرة، ومنها كانت أصولهم، فاستقضاه فعدل، وأذكر من سيرة القضاة الصالحين.

تعليق: يلاحظ أن ابن حيان يمهد بتوطئة ـ هي كالحكم المستنتج ـ ولا وجود لها عند ابن القوطية لأنه لا يحتاجها بل هي تفسد عليه السياق وهو يسرد أسماء القضاة.

وان الزيادات عند ابن حيان تضيف معاني جديدة (على كره) أو تعدّل سياقاً أسلوبياً يكلف به: «فعدل جهده وعفّ وتواضع واقتصد».

المقتبس (انطونية): ٨٦

كان الامير المنذر بن محمد قد ولى احمد بن البراء بن مالك القرشي سرقسطة وثغرها ومحاربة بني قسي (المنتزين بالثغر الأعلى) فأقره الامير عبدالله أخوه لما ولي، فعلا أمر أحمد بن البراء بالثغر واستكثر من الرجال (وعلت به الحال) وكان أبوه البراء بن مالك مقيماً بقرطبة وزيراً في جملة وزراء البيت (في منطقة فضل) فنقل عنه الى الامير

تاريخ افتتاح الاندلس: ١٣٠

وكان الامير منذر قد ولى أحمد بن البراء بن مالك القرشي سرقسطة وثغرها محارباً لبني قسي، فعلا امر ابن البراء ابن مالك واستكثر من الرجال [فأقره] الامير عبدالله، وكان أبوه البراء بن مالك وزيراً في البيت، فنقل عن الوزير الى عبدالله بعض ما غمه وخافه به لشيء أطلقه في البيت سمعه جميع الوزراء».

عبدالله كلام لم يوافقه، أطلقه في البيت، سمعه جميع الوزراء أصحابه أحنق الامير عليه (وجرَّ الاتهام الى ابنه والي الثغور)، وقد كان ابو يحيي محمد بن عبدالرحمن التجيبي السرقسطي، جد هؤلاء التجيبيين (المتداولين لسلطان الثغر في حالتي الانتزاء والطاعة) ذا اتصال بالامير عبدالله وهو ولد، أيام والده الامير محمد (وله ببلده حال رفيعة ورياسة ممهدة) فكتب اليه الامير عبدالله سراً يأمره بالفتك بأحمد بن البراء، ويعده ولاية البلد بعده، وانفذ له سجله على سرقسطة وأعمالها، فاطلع ابو يحيي أباه عبدالرحمن بن عبدالعزيز على ذلك وشاركه فيه، فأدارا على أحمد بن البراء أمراً كان فيه حتفه، ودسَّا عليه بعض غلمانه (ممن علما فساد ضمائرهم عليه) فقتلوه، وتولى ابو يحيي محمد بن عبدالرحمن امارة سرقسطة مكانه... الخ.

وكان محمد بن عبدالرحمن التجيبي، جد التجيبيين، المكنى بأبي يحيي له اتصال بالامير عبدالله وهو ولد، فكتب اليه كتاباً يأمره فيه ان استطاع ان يفتك بأحمد بن البراء فليفعل، وبعث اليه في الباطن بسجله على سرقسطة وما والاها.

فاطلع أباه عبدالرحمن بن العزيز على ذلك ووازره عليه فأدارا أمراً بلغا به ما أحبا بأن رشيا اعوان أحمد بن البراء فقتلوه، فلما أتي بخبر قتله عزل أباه عن الوزارة، وملك التجيبيون سرقسطة من يومئذ الى وقتهم هذا.

تعليق: ليس من خلاف جوهري: بين النصين، وما وضع بين قوسين في نصّ ابن حيان يكاد يكون كله زيادات توضيحية او تفسيرية، ولكن هذا لم يحدث تغييراً لا في روح النص ولا في نسقه، الا عندما جاءت «ودسا عليه بعض غلمانه» في صورة «بأن رشا أعوان أحمد بن البراء».

المقتبس (انطونية): ١٢٩

حسن بلاء القائد أبي العباس أحمد بن محمد ابن أبي عبدة في قيادته لجيش الامير عبدالله بن محمد، وكرمت مقاومته في الذب عن الدولة، وقام بحروب جميع المخالفين على وفور أعدادهم، وانما كانت عدته في حروبه ومعوله في زحوفه على نحو ثلاثمائة فارس (من مدونة الجند بقرطبة) كانوا انجاداً نخبة، فلم يجتمع مثلهم في عسكر بالاندلس، بهم اقتحم الغمرات الشديدة، وبلغ المبالغ المشهورة، ودافع أشد المخالفين وامام المجرمين عمر بن حفصون عند انبساطه (على الغارة في أحواز قرطبة وبأكنافها المرة بعد المرة) الى أن نازله على بابه (بقلعة ببشتر) وحلب الخيل اليه، فاشتد الامير عبدالله بمكان قائده هذا وانتصف من أعدائه، وأخرج الجيوش من قرطبة معه الى كثير من بلاد الاندلس (المستغلقة عليه) فأرهب أهلها) وأورد عليه كثيراً من جباياتها.

تاريخ افتتاح الاندلس: ١٢٤ - ١٢٥

وصرفت القيادة الى أحمد بن محمد بن أبي عبدة... فقام ابن أبي عبدة بحرب ابن حفصون وغيره من المنتزين بالاندلس، واستجلب الشجعان من كل بلد وضمهم الى الحق (؟) فاجتمعت حوله عقدة من ثلاثمائة فارس لم يجتمع بالاندلس قبله ولا بعده مثلها، فلم يزل يدفع ابن حفصون عن استطالته وانبساطه حتى حاربه على بابه، وقوي امر الامير عبدالله به حتى خرجت الصوائف من قرطبة الى جوانب الاندلس، وأورد كثيراً من جبايتها في كل عام.

تعليق: صاغ ابن حيان النصَّ صياغة جديدة ليبدي دور قائد كبير ضد مخالفي «الجماعة» والخارجين عليها، ومنح النصَّ نغمة بطولية «حسن بلاء... وكرمت مقاومته في الذب عن الدولة، كانوا انجاداً نخبة... بهم اقتحم الغمرات الشديدة، وبلغ المبالغ المشهورة... فاشتد الامير بمكان قائده وانتصف من أعدائه...»، ولم يتخلّ عن ادراج حكمه الاخلاقي على كل من يخرج على الجماعة. مثل ابن حفصون «إمام المجرمين»، كما أنه اهتم بادراج زيادات توضيحية على عادته.

المقتبس (٥ : ٣٢)	تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس لابن الفرضي (٢ : ٤١ ـ ٤٢).
ترجمة محمد بن عبدالله بن مسرة منقولة عن كتاب «تاريخ العلماء» لابن الفرضي.	ترجمة محمد بن عبدالله بن مسرة.

تعليق: لا فرق بين الترجمتين الا ما يكون أحياناً من فروق بين نسختين من كتاب واحد. (فاما الترجمة التى أوردها ابن حيان ٥ : ٣٠ لابن مسرة، وقال انها منقولة عن كتاب ابن الفرضي المصنف في علماء الأندلس، فهو وهم وانما نقلها من كتاب آخر لابن الفرضي، وهو على الأرجح كتاب شعراء الاندلس).

وقبل أن أعرض للنتائج المترتبة على هذه المقارنة أودّ أن أشير الى رأي للاستاذ ريبيرا يتصل بكتاب ابن القوطية ومؤداه ان هذا الكتاب ليس من انشاء ابن القوطية، وانما هو أقرب الى ان يكون سماعاً دوَّنه عنه بعض من كان يحضر مجالسه من المؤلفين بالاخبار[1]؛ وقد ذهب الدكتور محمود مكي الى تصويب هذا الرأي حين قارن بين نصّ لابن حيان نقله عن ابن القوطية وبين النصّ نفسه في المصدر الاصلي فقال: «فخبر نصر الفتى الذي أورده ابن حيان هنا مثلاً لا يرد في النص المطبوع الا على صورة مقتضبة موجزة لا تكاد تتجاوز بضعة سطور بينما هو لدى ابن حيان على ما يرى من التفصيل»[2] (انظر النص رقم: ٥ في هذا البحث). وهذا رأي وجيه حقاً، وخاصة لو اقتصر الأمر على كتاب ابن القوطية، ولكن الخلاف بين النقل والأصل قد تجاوز هذا الكتاب الى مصادر أخرى، كما أن الاخذ به اغفال لطبيعة الاسلوب الذي يميز كتابة ابن حيان.

ولدى اجراء المقارنة يتبين لنا أن ابن حيان لا يعتمد الحذف الا في القليل النادر (انظر النص رقم: ٦ حيث حذف ذكر الخزان والاقراع بينهم)، وأنه أحياناً ينقل نقلاً حرفياً فلا يكون الخلاف بينه وبين الاصل المنقول عنه الا كالخلاف بين نسختين مخطوطتين من كتاب واحد؛ ولكن نصّ ابن حيان ـ في اغلب الاحيان ـ أضفى، وإذا اعتبرنا هذا الفرق زيادة منه وجدنا أن أكثر تلك الزيادات كانت توضيحية لا تفسد الاصل، وانما تجعله واضحاً ضمن قرائن معينة؛ وهو يترجم العبارة المنقولة الى لغته مؤثراً العبارة البيانية فيستعمل: صبّ سيفه عليه فجرحه بدلاً من ضربه بسيفه (النص رقم: ٤) وقد يحتفظ بنواة الخبر ولكنه يطنب في التحليل والتفسير وبخاصة

في المواقف النفسية، وضروب الصراع بين المتنافسين، حتى ليبارح نقطة التركيز في النصّ الأصلي الى نقطة أخرى يراها هو أعلق بمنطق التاريخ (النص رقم: ٥). وكثيراً ما تكون الانتحاءات التي يؤثرها في أسلوبه كاشفة عن تصرّفه ذلك وأنه هو الذي يتحدث لا صاحبه المنقول عنه، ولا يخطىء الدارس ان يلحظ تعبيرات مثل: « أقادم صنائعه » و« حطّ في شعبها » و« على جميع الأراجح الاكبرين » و« هو يرصد لوجبة الامير ». وغير ذلك من تعبيرات. كذلك من الدلالة بمكان ان نجد العبارة في الاصل بسيطة مفردة ثم أن نجدها في نص ابن حيان قد شفعت بعدة متعاطفات رغبة في التقوية والتكثيف، فجملة « بغاية التشريف » تصبح « بغاية التشريف والانهاض والتخويل والامداد ».

وقد يكون الفرق بين النصين ناشئاً عن التصحيف، فقد ورد لدى ابن حزم في وصف رسيس (النص رقم:٣): كانت امرأة رفيعة مهيبة، بينا قال فيها ابن حيان « وهي عجوز سوء فاجرة » ولعلّ ابن حيان انما قرأ: « رقيعة مهينة » وبنى عليها ذلك الوصف.

كذلك تحدث ابن حزم (النص رقم: ٤) عن ابن حفصون دون أن يميزها بنعت، ولو فعل لحطّ عليه أكثر مما فعل ابن حيان، ولكن النص المنقول خال من ذلك، أما ابن حيان فلم يستطع أن يمر باسمه دون أن ينعته بـ « إمام الفساق ».

ان القول بأن ابن حيان يترجم أقوال الآخرين الى لغته ويدمغها بأسلوبه، واضح تمام الوضوح في ايرادات الشهادات السماعية، وبعض مواقف الخطابة، والخطاب والحوار، كقوله في استعادة موقف أحد الخطباء: « اني عبدالأمير أيده الله الناشيء في نعمته المنخلع في محبته، تأدت بي همة أخذت بضبعي ورفعت ناكس طرفي، وحاطني من الاعتراف ما يعجز عن مدى بلوغ صفته التي تحسر بلاغة المنتظم في أساليب مجده »[1] أو كقوله صياغة لحديث حدثه به رجل عطار: « ولزمني جمع من الناس حفيل بالمكان الذي صلبوا فيه بظهر الطريق، فلم يكن لي منفذ في زحامهم، فقعدت بالأرض حاشية منهم، غاضاً بصري، مستطيرة جوانحي لهول ما طرفته عيني، وضممتُ ثيابي على مخلاة كنت أوعيت فيها أشياء من حرفتي لأتجر بها في موسم العيد، فلبستني من هول المقام وصراخ المعذبين غاشية أذهلتني، أغتنمها مني لصٌّ فطن بي فاستل مخلاتي، فلما انجلت غاشيتها فقدتها فعجبت من بون ما بين فؤادي وفؤاد سارقي في الضعف والقوة، وأضحى يومنا يوم ذاك يوم هول ذعر الناس دهراً »[2]؛ اننا لسنا بحاجة الى التأمل الطويل لنحكم بأن هذا الأسلوب الجميل، ليس هو أسلوب العطار، وانما هي براعة ابن حيان في الصياغة وقدرته في اللغة وتمرسه بالرسم الذكي للمفارقات والحالات النفسية واضحة للعيان.

هل يمكننا بكل ثقة أن ننقل هذا التصرّف الى مستوى النصّ المكتوب؟ ان النماذج التي جرت فيها المقارنة لا

تدع مجالاً للشك في ذلك، ذلك لأن ابن حيان لم يكن يرى في نفسه محض ناقل عن الآخرين، بل كان له من قدرته على التحليل والاسلوب الجميل ما يقنعه بأنه لا بد ان يعيد كثيراً مما كتبه غيره، ليكون «التاريخ» متناسقاً في مستوياته المختلفة، فاذا قدرنا أن الاساءة الى الحقيقة التاريخية لم تكن وليدة لهذه المحاولة قدرنا اننا نقرأ أيضاً عيسى الرازي وعريب بن سعيد وابن مفرج واسحاق بن مسلمة - في أغلب المواقف الكبيرة - بأسلوب من نسج ابن حيان، لم تضع فيه النواة الاصلية (الا أن يقول ابن حيان «هذا لفظ فلان المؤرخ» (نصاً) فعندئذ يجيء النقل - فيما أقدر - حرفياً»[1]). ولكن التحقق من ذلك ما يزال بعيد المنال لأن كتابات هؤلاء المؤرخين لم تزل في طي الغيب.

الحواشي

(١) الذخيرة ١: ٥٧٨ - ٥٨٥.

(٢) الذخيرة: ٦١٤.

(٣) انظر مخطوطة الرباط رقم ١٢٧٥ (الخزانة العامة): ١٥٦ - ١٥٩ ففيها نقل عن شخص آخر اختصر تاريخ ابن حيان وهو عبد الرحمن ابن عون.

(٤) الذخيرة ٣/١: ١٨٨ - ١٨٩.

(٥) الذخيرة ٣/١٨٣، ١٨٥، ٥٢٨.

(٦) الذخيرة ١: ١٠٠، ٦٥٨.

(٧) الذخيرة ١: ١٨١، ٤: ١٢٨، ١: ٥٩١.

(٨) الذخيرة ١: ٥١.

(٩) الاغاني (دار الثقافة) ١٣: ١٤٨، ١٤٩.

(١٠) الذخيرة ١: ٤٠.

(١١) الذخيرة ١: ٦٥٨.

(١٢) الذخيرة ١: ٦٥٦ - ٦٥٧.

(١٣) انظر نموذجاً لازدحام المصادر في الذخيرة ٤: ١٢٨ من قطعة في وصف الاعذار الذنوني.

(١٤) الذخيرة ١: ٤٣، ١٨٧، ٥٩١.

(١٥) الذخيرة ١: ٦٥٨، ٣: ١١٨، ١٨.

(١٦) لست اتحدث هنا عن «الغموض» الذي يلازم نصوصاً لابن حيان لانها لم تقرأ قراءة صحيحة.

(١٧) المقتبس ٥: ١٣٨.

(١٨) المقتبس ٥: ١٥٤، ١٤٩؛ المقتبس (حجي): ٢١٩، ٢٣٦.

(١٩) المقتبس ٥: ١٧٢، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٢، ٣٨٤.

(٢٠) المقتبس ٥: ١٦٢، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢؛ المقتبس (مكي): ١٤٩.

(٢١) المقتبس ٥: ١٩٣، ٢١٣.

(٢٢) المقتبس ٥: ١٦٤، ١٩٦؛ المقتبس (حجي): ٣٧.

(٢٣) المقتبس ٥ : ٢٠٧ .

(٢٤) المقتبس ٥ : ٢٣٥ .

(٢٥) تاريخ الفكر الاندلسي : ٢٠٣ والمقتبس (مكي) : ٢٥١ .

(٢٦) المقتبس (مكي) : ٢٥١ .

(٢٧) المقتبس ٥ : ١٧٤ .

(٢٨) المقتبس ٥ : ٤٤٦ .

(٢٩) انظر المقتبس ٥ : ٤٣٦ حيث يقول: هذا لفظ عيسى بن احمد في تاريخه، وقارن وصف عيسى الرازي لطليطلة ٥ : ٢٧٢ بوصف اسحاق ابن مسلمة: ٢٧٤. فانك واجد شبهاً كبيراً بين الاسلوبين، ولا كذلك النقل من خط صاعد القرطبي فانه يمثل التزاماً بالاصل لانه يدور حول حقائق جغرافية تتعلق بطليطلة (ص: ٢٧٨) .